مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (7)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (7) 2013

الجاحظ مؤلّفاً

الدكتور يوسف زردة*
هيفاء ديوب**

(تاريخ الإيداع 2 / 6 / 2013. قبل للنشر في 22 / 10 / 2013)

□ ملخّص □

يسلّط البحث الضّوء على الجاحظ (ت 255هـ) بوصفه مؤلّفاً منسجماً مع الحياة بكلّ معانيها , وما كان يشيع فيها, فقد كان صدى ذلك التوثّب والغنى والتنوّع معاً, فهو ليس عالماً طبيعيّاً مجرّداً من الاهتمام بأمور اللغة والدين والأدب والسياسة, وليس لغويّاً انصرف عن الأدب والدين وسواهما, وكذلك ليس فيلسوفاً أو ناقداً انقطع عن الخوض في المفاضلة والفصل بين أهل الفِرَق والمِلل في سياق الدّين والعبادات .

بل – كما أشرنا – خاض في كلّ ما ذكرنا معزّزاً مفهوم الأدب في عصره بوصفه الأخذ من كلّ علمٍ بطرف, ولم يكن رأيه مأسوراً تماماً , ولا كلامه مغموراً في علمٍ أو فكرٍ أو لغةٍ وما عدا ذلك كلّه حتّى رأيناه يجمع جمع الراوية , ويجرّب تجريب العالم, ويحلّل تحليل النّاقد , ويُعلي العقل إعلاء الفيلسوف , ثمّ بعد هذا لا يترك الدّين ومذاهب النّاس فيه من غير أن يصف ويقارن ويؤوّل فيفضّل هذا ويؤخّر ذاك , ثمّ يخلط الأوراق فينتج كتباً ورسائل, فيها من كلّ لونٍ وطعمٍ, بنكهة جاحظيّة, و حليةٍ عبّاسيّة مصوغةً صياغةً أدبيّة بأسلوبٍ عذبٍ منسرح .

الكلمات المفتاحيّة : الجاحظ – الأدب – اللغة – النّقد – العلم – الفلسفة .

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريّة
** طالبة دكتوراه – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريّة

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (7)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (7) 2013

Al-Jahez: the Writer

Dr. Yousef Zarda*
Haifa Dayyoub**

(Received 2 / 6 / 2013. Accepted 22 / 10 / 2013)

□ ABSTRACT □

This study focuses on Al-Jahez(255 Hijra) asaharmonious writer with life of all its forms and contents because he was considered the appeal of enthusiasm, richness and difference altogether. However, al-Jahez is neither anatural scientist isolated from caring for language, religion, literature and politics, nor alinguist who ignored literature, religion or anything else. Similarly, he is aphilosopher who didn't give up dealing with disparity and the difference between communities and groups in the field of religion and worship. He dealt with all that is mentioned above concentrating on the content of literature in his time and making use of every science.

Al-Jahez belief wasn't influenced and his speech wasn't indulged in a science, alanguage or an ideology. He collected as a narrator, as experienced as ascientist, as analyst as a critic and highly elevating the mind as a philosopher.

As for religion and people's beliefs, he describes, compares, interprets, prefers this to that, then mixes the papers that lead to books and dissertations that disclose a variety of colours and tastes: al-Jahez's style and Abbaseid image that are well woven as far as the smoothness and fluency of the literary style.

Keywords: Al-Jahez; Literature; Language; Criticism; Science; Philosophy.

***Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**
****Postgraduate Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدّمة :

عندما نتناول بالدّرس الجاحظ ومؤلّفاته , وتقسيمها على ضروب الفكر والأدب والمعرفة جميعاً , لا بدّ من تداخل الألوان , وتشابك الخطوط , فنحن ندرس الجاحظ الظاهرة وهو المتميّز في سعة علمه , وتنوّع معارفه حتّى إنّه لم يترك باباً من أبواب المعرفة الإنسانيّة في أيّامه إلا طرقه وولجه بخطاً واثقة , ووفق مسيرة كان نتاجها قيّماً, وفيراً, غزيراً .

أهميّة البحث وأهدافه :

تتجلّى أهميّة البحث في خوضه غمار مؤلّفات الجاحظ , ومناحيه فيها ؛ فهو المؤلّف الموسوعي , ذو الفكر الشموليّ , المتميّز في أسلوبه , وتناوله مجالات الفكر والحياة بكلّ أبعادهما , ويضيء المناحي المختلفة كما تظهر في مؤلّفات الجاحظ من أدبٍ ولغةٍ ونقدٍ وعلمٍ وفلسفةٍ في محاولةٍ حثيثةٍ لصياغة نظرةٍ جديدةٍ , وآليّة قراءةٍ معاصرة تستهدي بما سبق لتجدّد وتبتكر – بما أمكن –

منهجيّة البحث :

يقوم البحث على منهج وصفيّ تحليلي , يعتمد قراءة نتاج الجاحظ قراءةً وصفيّةً تصنيفيّةً تعتمد المناحي المختلفة لفصل خيوط التشابه والتشابك فيما بينها , ومحاولة إعادة قراءة الصّورة الكليّة المتكوّنة منها بروح الرّبط والتّحليل في محاولة جادّة لإعادة رؤية شخصيّة الجاحظ المعرفيّة .

وقد تمّ إجراء البحث في جامعة تشرين ولصالحها .

الجاحظ والأدب :

عندما نتناول الجاحظ أديباً نجده على ما كان ينظر في عصره إلى أنّ "الأدب أخذٌ من كلّ علمٍ بطرف"[1] , وإذا لم يتفرّد الجاحظ في هذا المنحى , لأنّ غيره قد فعل هذا , فإنّ تميّزه وفضله في ميله إلى التعمّق في جواهر تلك العلوم المعروفة آنذاك , ثمّ إلحاحه في الإفادة من تداخلها وتماهيها علميّاً وعقليّاً حول طبيعة الخلق والحياة طبيعةً وإنساناً وجماداً ؛ بمعنى أنّه سعى جادّاً جاهداً في الانتقال من المعلوم إلى المجهول , وفوق هذا شكّك الجاحظ في كثير من المعلوم والمسلّم به عند سواه , وكثيرةٌ ملاحظاته على البارزين من رواةٍ وفلاسفة بما لم يوافق عقله الجامح إلى الاستكشاف والاستنباط والتدقيق , وصولاً إلى الحالة اليقينيّة التي يُفترض أن تكون أبعد غايات الباحثين في كلّ علمٍ ومجال من مجالات الحياة , والفكر الإنساني , فشخصيّة الجاحظ الفكريّة لم تكن لتتكوّن مصادفةً , إنّما هي ناتج طبيعي من بيئته , واهتماماته , وتنوّع مصادر معرفته "وقد استطاع الجاحظ في البصرة معاشرة النحويين وفقهاء اللغة وعلماء حريصين على جمع الشعر القديم , والروايات التاريخيّة , متمرّساً في الوقت ذاته بالقضايا السياسيّة الكبرىالتي طرحتها الفرق الإسلاميّة الكثيرة, ومراقباً وسطاً مليئاً بالمعلومات , وجاهداً – كما هو مفروض عليه – لاكتساب مدركات كلاميّة عقائديّة "[2], وعلى هذا لا يمكن أن نقول : إنّ الجاحظ أديبٌ أو عالمٌ على وجه التحديد , لأننا نجدهباحثاً في الدين والفلسفة يأبى الفصل بين عمل العقل , والواقع , والنصّ الديني , والمذهب الفلسفي , وهنا ترجح

[1]– ينظر: ابن خلدون , المقدمة , ص: 488-489

[2]– ينظر : بلا , شارل , الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء , ص : 370

كفّة الشموليّة التي هي إلى الأدب أقرب بما يحمله أو يدلّ عليه من جوانب اللغة والفكر والخبر والنقد والرواية وسوى ذلك غير قليل .فنحن إذا تروّينا في أسلوبه , في أكثر ما كتب , وجدناه يعلي من قيمة أسلوب الكتابة , معللاً بموقف المتلقي , ومشاعره التي إذا بردت مالت بصاحبها عن الاطلاع , وكأنّ الحبل العجيب ما بين الكاتب والمتلقي يصبح ضعيفاً , أو مقطوعاً , فتفقد العمليّة الإبداعيّة قيمتها ورونقها الخلاب , فقد طوّع الجاحظ لغته لأسلوبه , وأسلوبه لغاياته التي أشرنا إليها سابقاً , ومن أهمّها شدّ القارئ , وإمداده بما يريد من فكرٍ, وتحليلاتٍ , وإضاءاتٍ على جوانب قد تخفى إلا على المهتمّين .فلو نظرنا في كلّ من لغة الجاحظ وأسلوبه في الاستطراد , إلى جانب كثرة مواد الأدب التي طرقها , وخاض فيها لحكمنا بكونه أديباً , ولا داعي للخوض في جوانب شخصيّته الأخرى . أمّا وقد عرفنا وذكرنا ما درسه وخاض فيه وأبدع فإننا ملزمون بعدم تجريده من باقي صفات العالم والفيلسوف والناقد ..فلو جرّد المادة العلميّة التي قدّمها في "الحيوان" من بهاء لغة الأدب لبعد عنه وصف الأديب . لكنّه وعلى النقيض قد قدّم مفردات ذلك العلم بملاحظاته وتجاربه ومقارناته , قدّمها كلّها بأسلوبٍ أدبي يراعي حسن العبارة , وجمال اللفظ , وأثر ذلك في نفس المتلقي وعقله , فلا يكاد يخلو فصل , أو جانب , أو مادة معرفيّة , من مادة أدبيّة هي في ظاهر الأمر صورة أدبيّة شعريّة ... وربما كان ذلك منه بسبب معرفته بمكانة الشعر في نفوس العامة والخاصّة من جهة , وبسبب كون الشعر ديوان العرب , ووعاء علومهم وأخبارهم وحياتهم من جهة أخرى .فالشعر بوصفه مادةً وإناءً معاً كان ملزِماً لكلّ كاتب أن يبقى فيه , أو لا يبعد عنه فيفقد نتاجه قيمته , أو يضيّع وجهته إلى قلوب الناس وعقولهم . وبهذا يكون قد التصق بالواقع التصاقاً وثيقاً لا انفصام في عراه , من غير أن يتجمّد على ظاهر الوصف الخارجي الظاهر . إنّما كان الواقع عنده معطىً متحرّكاً متغيّراً , قابلاً للتحليل والتصوير على هيئات تتباين وتتلاقى على نحوٍ غريب لطيف , فإذا نظرنا في تصويره الإنسان وفق جوانب شخصيّته المتكاملة وجدناه لا يبعد عن الصورة العلميّة , ثمّ إذا نظرنا في درسه اللغوي وجدناه عالماً باللغة ووظائفها بما يتوافق مع المنحى العلمي التحليلي في اللغة , لكنّه كان يعود ويصبّ ذلك النتاج العلمي المتألّق بقالب أدبي جميل متأنّق , حتى استحال الفصل لديه بين الأدب والعلم , أو بين المادة المعرفيّة وتصويرها الأدبي , وهذا ما نراه عائداً إلى الوحدة التي آمن بها , وحدة العقل الإنساني في تفكيره , وطرائق عمله , ووحدة الوجود الطبيعي , ووحدة خالق هذا الوجود جلّ وعلا .وبناءً على ما عُرِف به الجاحظ من تحرّر العقل , والاهتداء به , وعدّه سيّداً وإماماً له , ولسواه , في كلّ درسٍ وبحث واستقصاء وتفاضل , فقد جاز لنا الإقرار له بالصفة العلميّة والشموليّة في مذاهب الفكر والنتاج المعرفي الإنساني على العموم . وفي هذا الصدد لا بدّ من تقديم نبذة عن كل من هذه الجوانب في نتاج الجاحظ المعرفي بما يسمح به المقام , وطبيعة البحث , وحجم الدراسة , ونبدأ أولاً بسمات أدب الجاحظ :مال الجاحظ في أدبه إلى الواقع , وتصوير الحياة بكلّ ما فيها من جوانب حتى غدا نتاجه علامة عصره الفارقة , وإناءه الجامع المانع , وليس من شكٍّ في شرعيّة بلوغه هذه المرتبة العليا بما قدّم من عميق الجهد , وجليل الأثر .وقد عمد الجاحظ إلى تخليد آثاره عبر دقّة تصويره الحياة , واختياره قوّة الأسلوب لتنتشر هذه المؤلّفات فتبقى في الأذهان ما بقي لعمل الذهن والذاكرة من قيمةٍ ودور . فأدبه شموليّ واقعيّ , يركز على الحالة النفسية لدى المتلقي حيث يطعّم الجد بالهزل , والمنحى المعرفي بأخيه , ويقتبس الخبر , وكلام الآخر, بما يوافق غايته ومبدأه في التفكير , حتى كوّن لنفسه تلك الهالة الجاحظيّة التي غدت مدرسةً ومعلماً فكريّاً قائماً بذاته " إنّ الجاحظ يُعنى في كتاباته بحكاية عصره , وتمثيله تمثيلاً دقيقاً , بحيث تعدّ أعماله أهم مراجع تكشف لنا عن حقائق العصر الذي عاش فيه , فنراه يصوّر هذه الحقائق بكلّ ما فيها من طُهرٍ ووِزرٍ , ودين وزندقة , وجِدٍّ وهَزْل "[3].وكان الجاحظ في

[3]– **ضيف , شوقي ,الفن ومذاهبه في النثر العربي, ص :163**

أدبه مائلاً إلى المتلقي بوصفه حاضراً في ذهنه , وغايةً في نفسه , مؤمناً بأنّ الكتاب بلا قارئ غير ذي قيمة , ومن هنا عمد إلى الاستطراد في أسلوبه , وتطعيم الجد بالهزل للإراحة والإمتاع , ثمّ الإطراف بطرفة أو نادرة دفعاً لسأم , ودرءاً لملل . لكنّ الميل إلى الواقع بكلّ ما فيه من غنى وتداخل لا بدّ منعكسٌ في أدب الجاحظ , وعلى القدر ذاته من الغنى والتداخل حتّى بدا نصيرَ الواقع في أدبه , وحامله ومصوّره الموضوعيّ ." نعم , لقد كان الجاحظ أديباً واقعيّاً , وهو الذي أرسى الواقعيّة في الأدب العربي القديم , وهو في كلّ ما كتب لم يكذب على الحقيقة وواقع الحياة , إذ كان للأدب عنده غاية , هي بالإضافة إلى الناحية الجماليّة الأدبيّة , إصلاح شأن الخاصّة والعامّة , لذا نراه في كتبه قد توجّه إلى جميع فئات الشعب , وكتب عن هذه الفئات جميعاً من صغيرها إلى كبيرها , وكانت واقعيّته في كلّ ما كتب واقعيّة المتفائل الطموح , وفاءً بمطالب المجتمع وحاجاته "[4]. فلم يؤمن الجاحظ بالفصل بين المادة الواقعيّة والصورة الأدبيّة التي تحملها أو تعبّر عنها , فأخذ من الواقع وأعطاه بأن أعاد تصويره بما أبدع , وبما انتقى من آداب الآخرين شعراً وأثراً وخبراً , وبما رمى إليه من اختياراته واستطراداته ومقارباته في العرض والتأليف والترتيب على غير نظامٍ ظاهر .ومن أميز سمات أدب الجاحظ في المنحى الواقعي تسمية الأشياء بمسمّياتها وفق واقعيّة اللغة , فكأنّ المسألة لديه علمٌ لا حرج فيه ولا حياء , بل وفوق هذا صوّر الكناية عن الشيء مراعاةً لشعور, أو دفعاً لحياء على أنّها قد تُفقِد السياق قيمته فيكون أصحابها ليسوا من أهل العلم ولا الواقع , بل هم المتصنّعون , والأبعد عن الذوق والأدب , فكأنّه حتى في هذا المجال على قدر من الحرية كبير , ولا تردّد عنده في معاداة من يوارب ويعمّي ويكنّي " ..وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر ....ارتدع , وأظهر التقزّز , واستعمل باب التورّع . وأكثر من تجده كذلك فإنّما هو رجلٌ ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنّع , ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل , ونذالة متمكّنة "[5].وقد زاد على هذا فكان يروي الحادثة بحرفيّتها , والطرفة كما هي بألفاظها وسياقها حتى لا تفقد رونقها وجاذبيّتها على مبدأ أنّ الشيء كما هو يكون حقيقة واقعة ملموسة , أما إذا اقتطعت منه أو بدّلت فيه , أو نقلته من مقام إلى مقام فإنّك لن تصدّق أنّه هو ما كان عليه , فتتلف منه بريقه وألقه , فالجاحظ وهو على دقته في اللغة , واهتمامه بالفصاحة , وإعلائه للبلاغة لا يرى من الحسن تصحيح غلط أو لفظ في طرفة كي لا تموت أو يموت فيها الأثر , أما اللغة وسلامتها وصيانتها فلها مقامٌ رفيعٌ آخر يمكن فتح بابه والسير فيه بالعلم والدرس, والصحيح من المروي نثراً وشعراً , فهو يقول وبكلّ وضوحٍ في الدلالة والقصد : " ومتى سمعتَ , حفظكَ الله , بنادرة من كلام الأعراب , فإيّاك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها , فإنّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها , وأخرجتها مخرج كلام المولّدين والبلديين , خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير , وكذلك إذا سمعتَ بنادرة من نوادر العوام , ومُلحة من مُلَح الحِشوة والطّغام , فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب , أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً , أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريّاً , فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها , ويخرجها من صورتها , ومن الذي أريدت له , ويذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها "[6]. فهو لا يخاف على اللغة وهي ذاك الصّرح الشّاهق أثر هفوات أو أغلاط ممّا يرد في طرفة أو نادرة , وكأنّه يرى أنّ النّوادر والطّرف شأنها شأن ظرفٍ عابر , أو حديثٍ مع الذات لا يحتاج صاحبه إلى الفصاحة والتدقيق حتى يبلغه مستوى الفهم له , والإمتاع به .وأمّا حماة ذلك الصّرح وساكنوه فهم عامّةٌ تربّت عليه , وخاصّةٌ سادت فيه , فلا خوفٌ عليهم من أمورٍ صغيرة , وهفواتٍ عابرة تسلي أكثر مما تخوّف , والدّليل أنّه يوجب تنقيح المؤلّفات كي تكون في

---

[4]– عبد اللطيف , محمود ,التراث العربي الإسلامي في مجال الفكر التربوي ج1, الفكر التربوي عند الجاحظ , ص :88

[5]– الحيوان ,ج3 /12

[6]– البيان والتبيين ج1 /81

المستوى المطلوب فلا ينالها كره أصحابها بالنقد والتجريح لا في المبنى ولا في المعنى ؛ وكأنّه يقول إنّ الكتاب صوتُكَ , ووحي معرفتك , ورسولُ فكركَ في مسامع النّاس وضمائرهم وأذهانهم , فاجعله فصيحاً بليغاً , قويّ الحجّة , غنيّ الرواية , وأمّا ما دون مستوى الكتاب فليكن كما هو فلا خوف منه , ولا أثر له إلا بالقدر الذي يريد متلقّيه , فها هو ذا يقول :" وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أنّ الناس كلّهم له أعداء , وكلّهم عالمٌ بالأمور , وكلّهم متفرّغٌ له ..."[7]. ولا يمكن في هذا المجال إبراز كامل سمات أدب الجاحظ , والتحليل فيها استخلاصاً وانتخاباً واستدلالاً , غير أنّه وبصورةٍ عامّة أدبٌ شموليٌّ , حياتيٌّ , واقعيٌّ , إنسانيٌّ ساير النّاس عامّتهم وخاصّتهم , أدلى فيه الجاحظ بدلوه في فنون الكتابة والإبداع الأدبي كلّها , وجسّد به نظرته إلى الإنسان فرداً ومجتمعاً , والحياة علماً وتنظيماً , فوفّق بينهما , وحدّد نظرته القائمة على الأخذ والعطاء , وكلّ ذلك بأسلوب سهلٍ ممتنع تراه فلا تعرفه , وتعرفه فلا تصفه , وتصفه فلا تحدّه ,وتقوده فلا يُسلس , وإذا أسلس لك جمحَ بك . حتّى يقع في نفسك موقع البريق من الذّهب , أو موقع الكتاب من صاحبه .

الجاحظ واللغة :

لم تكن اللغة يوماً مفصولة عن الإنسان عاطفةً وفكراً وتطلّعاً , ولعلّ الأدباء والكتّاب والعلماء هم أقدر النّاس على فهم هذه العلاقة الشائكة الخلاقة , ولا نغالي إذا قلنا : إنّ الجاحظ قد كان في الموضع السّامي بين هؤلاء , فقد عرف وظيفة اللغة ومناحيها النفسيّة والاجتماعيّة , العاطفيّة والتواصليّة , وهذا كثير لدى سواه , لكنّ عبقريّته تتجلّى في ميدانيّة بحثه واستخلاصه في هذا المجال الرّحب الغنيّ المتوثّب الذي يتشكّل في كلّ زمانٍ ومكان , وعند كلّ إنسان أو قومٍ , وفي كلّ حالةٍ أو ظرفٍ على هيئة خاصّةٍ مناسبة من دون الخروج على الأصل والجوهر , إلا بما تسمح به, أو تقرّه , قوانين التطوّر في حياة الناس ولغتهم على السّواء , وصولاً إلى أثر البيئة في كلٍّ من الأصوات واللهجات , وحتّى في كثرة الاستعمال لحرفٍ أو لفظٍ بعينه .والواضح البيّن عند دراسة اللغة عند الجاحظ , ودوره في الدّرس اللغوي, هو أنّه لم يبدأ من النّقطة الأولى ؛ إذ سبقه وعاصره باحثون ولغويّون كان لهم شأن كبير , لكنّ اللافت أنّه لم يكتفِ بما كان يُعرَف ويُدرَس , أو يُعرَّف به ويدرَّس .والجيّد الجليل في دوره ومكانته – في هذا المنحى – أنّه لم تُعرف قيمة ما جاء به حتّى نهضت الدراسات اللسانيّة في العصر الحديث إذ :" لم يهتمّ الجاحظ – بحسب لسانيي التراث – بموضوعات علم اللغة التي تداولها اللغويّون في عصره , وعادت الدراسات اللسانيّة لتكشف عن أهميّتها فقط , بل اهتمّ أيضاً ببعض فروع علم اللغة التي ترتبط بفروع لغويّة تدرس في خانة الدراسات الأكثر حداثةً في علم اللسان كالسوسيولسانيّات ؛ ذلك أنّ كتب الجاحظ , ورسائله تزخر بإشارات تمثّل في مجموعها إرهاصات لهذا العلم منذ وقت مبكّر في تاريخ الحضارة العربيّة "[8]. فلو أراد الجاحظ التخصّص في درس اللغة واللسان , وتسنّى له منهجٌ علميٌّ محدّد الرّسم والمناحي , لكان قد أغنى البشريّة عن كثيرٍ من دراسات لغويّة لسانيّة جاءت بعده .ومن الواضح في غير قليل من تضاعيف كتبه أنّه كان يبثّ الملاحظات النابعة من إدراكه الأبعاد اللغويّة , ووظائف اللغة بألفاظها , وأصواتها , ونطقها, وعيوب الناس في النطق بها ؛ حتى إنّه لم يغرق في الميل إلى لغة أو لهجة , بل أدرك أنّ اللغة كلٌّ متكامل, وصورة فكر إنساني وحالات نفسيّة وإنّما هي كضفّتي الحروف والألفاظ والتراكيب , روافدها المعاني والعواطف , ومنبعها العقل الإنساني , ومجراها النطق والتواصل , ومنتهاها عودةٌ إلى البداية من جهة الفهم والإفهام , والبيان والتبيين ؛ بمعنى أنّ الخطاب اللغوي هو عبارة عن عمليّة تواصل يستوجب قيامها ثلاثة أركان هي : المتكلّم والسّامع

---

[7]– الحيوان ,ج1 /44

[8]– ينظر :خليل , حلمي , دراسات في اللسانيات التطبيقية , ص: 154

والكلام , فاللغة بهذا المنحى رسالة المتكلّم إلى المتلقي , وأمانته عنده, فإن لم تصل ضاعت , وإن لم تفهم فُقِدت , فالأولى أن يجعلها المتكلّم على القدر الكافي من الوضوح والملاءمة لمقتضى الحال , وطبيعة الموقف , وهيئة التعبير والتلقي التي تناسب كلاً من طرفي الرسالة " والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعْتَ الله عزّ وجلّ يمدحه , ويدعو إليه , ويحثّ عليه . بذلك نطق القرآن , وبذلك تفاخرت العرب , وتفاضلت أصناف العجم . والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى , وهتك الحجاب دون الضّمير , حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته , ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان , ومن أيّ جنسٍ كان الدليل ؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع , إنّما هو الفهم والإفهام ؛ فبأيّ شيءٍ بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى , فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[9]. ولولا هذا الفهم لقلنا : إنّ الكلام في مناحي التعبير اللغوي قد درست وما زالت تدرس أكثر مما ينبغي , غير أنّ الأيّام والدراسات تكشف تباعاً ما كان يخفى على أهل الماضي البعيد والقريب , أو ما كان معلوماً لديهم ثمّ لم يثبّتوا فهمهم إيّاه بالدليل القاطع , والنسبة الصحيحة . وإنّ من الحكمة في الحياة بكلّ أطيافها قولهم : " لكلّ مقامٍ مقال" وقد انطلق منها الجاحظ في غير قليل من أمور البحث, ومواد الدراسة والتقصّي , ولنستمع إليه يقول : "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميّاً , وساقطاً سوقيّاً , فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشيّاً ؛ إلا أن يكون المتكلّم بدويّاً أعرابيّاً ؛ فإنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النّاس , كما يفهم السوقي رطانة السوقي . وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف , والمليح والحسن , والقبيح والسّمج , والخفيف والثّقيل ؛ وكلّه عربي , وبكلٍّ قد تكلّموا , وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا"[10].فالجاحظ ممن أدركوا قيمة اللغة , ومسايرتها البشريّة نشأةً وتطوّراً وتنوّعاً قِدَماً ومعاصرة , وبساطةً وعلوّاً , وفقراً وغنى , فكأنّ اللغة كما يراها صورة أهلها , وعموم المتصلين بها, ومن يتواصلون عبرها , فهي بهذا المعنى مرادف الإنسانيّة – إن صحّ التعبير –وقد أكثر الجاحظ من عرض الملاحظات والمقارنات بين اللغات واللهجات والأصوات والعيوب في كلّ منها من غير أن يفرد الصواب للغةٍ أو لهجة, ودون أن يجرّد حرفاً واحداً في لهجة أو لغة من قيمته , وإمكان الاستدلال به , وبنوعيّة أو مستوى استخدامه على حالةٍ نفسيّة أو معرفيّةٍ معيّنة ؛ ذلك لأنّه عرف رحابة المعنى قياساً بحجم اللغة وحروفها , فكما المادّة تتشكّل وتتخلّق على صورٍ وهيئات لتكوّن الوجود الطبيعي بأبعاده , وكما تثور النفوس أو تخبو فيها المشاعر فإنّ على اللغة أن تكون مرنةً قابلة للتوليد حتّى تجاري هذا المدى الواسع من الأفكار والأحاسيس والغايات , وهو حتى في سياق عرضه هذا الفهم يصرّ على موقف المتلقي إذ يقول : "ثمّ اعلم – حفظك الله – أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ؛ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية , وممتدّة إلى غير نهاية , و أسماء المعاني مقصورة معدودة , ومحصّلة محدودة . وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظٍ وغير لفظ , خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أوّلها : اللفظ ثمّ الإشارة ثمّ العقد ثمّ الخط ثمّ الحال التي تسمّى نِصبة . والنِّصبة هي الحال الدالّة ...."[11].ويكون بهذا قد طرح مشكلة اللغة الأولى .وهناك فكرةٌ أخرى تحدّث عنها وهي التطوّر الدلالي للغة فهي في حالة حياةٍ متجدّدة توسيعاً وتنشيطاً حتّى تواكب الحياة كلّها , وتضطلع باستيعابها , والتعبير عنها بما يناسب . إنّ هذا الفهم للغة هو السرّ والجوهر في حقيقة شيوع لغة , أو سيطرتها زمناً ثمّ تراجعها في زمنٍ آخر , إلى جانب كونه سببَ حياة لغةٍ وموت أخرى " فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية, وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم , ولتلك الألفاظ مواضع أخر , ولها حينئذٍ دلالات أخر ؛ فمن لم يعرفها

[9]– الجاحظ , أبو عثمان ,البيان والتبيين ,ج1/ 75–76

[10]– نفسه ,ج144/1

[11]– نفسه . ج1/ 75–76

جهل تأويل الكتاب والسنّة , والشاهد والمثل ؛ فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم , وليس هو من أهل هذا الشأن , هلك وأهلك "[12].وقد يكون اهتمام الجاحظ باللغة ودراستها تفصيلاً وإبانةً وبلاغةً مما يعود إلى إيمانه بمكانة ما تحمله العربيّة من فضل في مجال الدين الإسلامي , والحياة السياسيّة , والدليل على هذا مقارناته غير القليلة بين اللهجات في اللغة الواحدة , ومقارناته بين لغةٍ وأخرى , حتّى إنّه قد فصّل وبكلّ إجادةٍ في أمراض الكلام , ونسب كل مرض إلى سبب في الجسم , أو طبيعة البيئة والنشأة لدى صاحبه , فكان درسه هذا علميّاً تجريبيّاً أشبه ما يكون بالدرس المدعوم بالتجارب المخبريّة في أيّامنا , فهو في غير قليل في رحلته في "البيان والتبيين " وفي " الحيوان" يعرض أوصافاً وأخباراً وآراءً وأمثلةً عن كلّ من هذه العيوب والآفات النطقيّة , ومتى تكون منفّرة , ومتى تكون مقبولة , أو لا تفسد عمليّة التلقي لعدم خطرها على موقف المتلقي من المرسل , وعلى وضوح الرّسالة ذاتها . وفوق هذا طرح بعضاً من طرائق علاجات تلك العيوب ؛ بمعنى أنّه نحا في درسه اللغوي المنحى العلميّ الوصفيّ والتجريبيّ لكن – للأسف – من غير منهجٍ واضح ثابت الصورة , وإن بدا واثق الخطوات في الوصف والتعليل , واقتراح العلاج لتلك الظواهر الصوتيّة اللسانيّة على نحوٍ عام , والحديث في هذا المجال يطول ويتسع في كتاب "البيان والتبيين ", والجاحظ في كلّ موضع يكشف لنا عن خبرة ودراية في كلٍّ من وصف العيب النطقي وسببه , وما ينجم عنه من آثار, فهو يفتتح الكتاب بالتعوّذ من العيّ والحصر:" اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل , ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العُجبِ بما نحسن , ونعوذ بك من السلاطة والهذر , كما نعوذ بك من العيّ والحصر.."[13].ويقول في مكانٍ آخر من "البيان والتبيين" : " في لسانه حُبسة , إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حدّ الفأفاء والتمتام , ويقال في لسانه : عُقلة , إذا تعقّل عليه الكلام , ويقال في لسانه : لُكنة , إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب , وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأوّل , فإذا قالوا في لسانه : حُكلة فإنّما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق , وعجز أداة اللفظ , حتّى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال "[14].كما تكلّم الجاحظ عن أنواع الأفواه , وتركيبها , وتوزّع الأسنان فيها , وأثر ذلك في النطق والكلام , وذكر الحروف التي تدخلها اللثغة , وفصّل فيها , وذكر كثيراً من الأشخاص المعروفين الذين اعترى ألسنتهم شيءٌ منها , وكيف استطاعوا أن يتغلّبوا على هذه الآفات النطقيّة. وعودة إلى مقولة "لكلّ مقامٍ مقال " , وانطلاقاً من فهمها على نحوٍ علميّ موضوعيٍّ نرى الجاحظ يوصّف كلاً من "الإيجاز والإطالة"بما يميّز بينهما على أساس مقتضى الحال , وأثر قيمة المادة الموصوفة , أو الرسالة المرجوّ إيصالها في حجم الكلام عنها , ونوعيّته , ومستواه من غير إغفال أثر مستوى المتلقي , والظرف العام في هذه العمليّة اللغويّة بكلّيتها .فقد طرح على نحوٍ بسيط وواضح إشكاليّات السياق , والموقف , والعلاقة بين المرسل والمتلقي ؛ فكأنّه أراد أن يقول : اجعلْ كلامك على قدر الموقف حتّى يحقّق الغاية دون زيادةٍ أو نقص . " والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عدد الحروف واللفظ , وقد يكون الباب من الكلام مَن أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز , وكذلك الإطالة , وإنّما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه , ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره , فما فضل عن المقدار فهو الخطل "[15]. فهو بهذا يريد لكلّ متكلّم أن يكون رسّاماً , يعرف فضل اختيار الألوان ومزجها, والمساحة المراد تلوينها بها حتّى تؤدّي دورها في هذا الرّسم البديع لتكون الرسالة اللغويّة فنّاً أصيلاً يحمل الفكر والإحساس ,

---

[12]–الجاحظ , الحيوان , ج1 /153– 154

[13]– البيان والتبيين , ج1 /3

[14]– المصدر نفسه , ج1 / 39–40

[15]– الحيوان , ج1 / 91

وينقلهما إلى المتلقي كي تجري عمليّة التواصل على أفضل نحوٍ ممكن فلا تحتبس الطاقة الفكريّة والعاطفيّة في ذات المتكلّم المبدع , ولا يهمل المتلقي شيئاً منها , ولا تضيع بعض أجزائها بين الطرفين فتكون تلك العمليّة التواصليّة قد أخذت مجراها الصحيح من دون جهدٍ زائد , ومن دون ضياع جزءٍ مفيد , وبهذا يصحّ وصف اللغة بأنّها صورة الفكر , وصوت العاطفة , وعنوان التواصل الإنساني عقليّاً ونفسيّاً على السّواء .وبما أنّ الجاحظ إنسانٌ ذو أفقٍ واسع , وعاش في عصرٍ توثّبت فيه الهمم تستوعب فكر الحضارات والثقافات , واختلطت فيه الأعراق والقوميّات فنشطت حركة الترجمة والنّقل , فقد آمن بحتميّة الاطلاع على رؤى الآخر وأفكاره , ومنطلقات مواقفه الحضاريّة , وكان لذلك كلّه مؤمناً بضرورة الترجمة كأحد أهمّ مسارب الفكر الإنساني بين الشعوب والأمم , وهذا كثيرٌ عند سواه من المفكّرين والعلماء , وذوي الشأن عموماً . لكنّ تميّز الجاحظ قد تجلّى في وعيه بأهميّة الترجمة من جهة, وفي إدراكه أهمّ شروطها , ومخاطر الضّعف فيها من جهةٍ ثانية حتّى أوجب على الترجمان شروطاً إذا لم تتحقّق فيه أفسد المنقول , وأضرّ بالمنقول إليه " ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة , في وزن علمه في نفس المعرفة , وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها , حتّى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين , علمنا أنّه أدخل الضّيم عليهما ؛ لأنّ كلّ واحدة من اللغتين تجذب الأخرى , وتأخذ منها , وتعترض عليها , وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعتين فيه , كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة ..."[16]. فمعرفة اللغة ليست إمكان النّطق بها عن قصدٍ وإرادة إنّما تكمن هذه المعرفة في أن يفكّر الإنسان بهذه اللغة نفسها فلا تكون تسمية الشيء عنده بلغةٍ معيّنة ثمّ يجد نفسه مستذكراً اسم هذا الشيء في لغةٍ أخرى حتّى يترجم إليها , فكأنّ المترجم يجب أن يكون من أهل اللغة المنقولة والمنقول إليها في آنٍ واحد , وهذا هو الفارق الجوهريّ وشبه المحتوم بين حقيقة اللغة ودلالتها على الفكر والهويّة وبين حفظ قواعدها نحواً وصرفاً ودلالةً .والحديث في لغة الجاحظ , ودرسه اللغوي , والمناحي التي تطرّق إليها , وغاص فيها حديثٌ يطول ويتسع ويتشعّب حتىليحتاج إلى دراساتٍ مستقلّة ومتكاملة , وليس هذا مما يقتضيه بحثنا , أو يسمح به , لكنّنا نتساءل : كم كانت الخسارة كبيرةٌ لو لم يُتَح للجاحظ البحث والتأليف ؟ وبالمقابل لو أنّه عاش في عصرنا بما فيه من بنىً علميّة تجريبيّة ووسائل اتصال حديثة , فهل كان لغيره من الدارسين مكانٌ وشأنٌ كما هم عليه ؟إنّها طبيعة الحياة القائمة على التسلسل والتنوّع والتكامل بين الناس والعصور والحضارات , ولا نقول هذا لنشير إلى مكانة الجاحظ فهي أجلّ من رأيٍ يعطى , وشهادةٍ تجرح , لكنّ الوفاء يقتضي أن نشكر روّاد الفكر والدراسة والأدب , ولا أحد يراه بعيداً عن هذا كلّه .

الجاحظ والنّقد :

جرت العادة أن تسيطر الفكرة التي يدرسها الإنسان , والظاهرة التي يتقرّى ملامحها حتّى لا يرى سواها , أو حتّى يراها في كلّ شيء وموقف , لكنّ عين النّاقد وفكره يجب أن يكونا على القدر الكافي من الحِدّة والتوقّد من غير أن يبالغ في التأويل , أو يقوّل ما ينقده بما ليس فيه , ولهذا فمن أيّ زاوية نظرْتَ إلى الجاحظ وجدْتَ عجباً في شخصيّته ؛ إذ لم يتخصّص في مجالٍ بعينه , لكنّه في كلّ مجال تناوله أعطى كمّاً ونوعاً بما يثبت ريادته , وعمق تجربته فيه . فالمعروف والظاهر أنّه أديبٌ ولغويّ وعالم لكنّه إضافةً إلى هذا كلّه ناقدٌ ثقِف اللغة , وسبر أغوار النفس , وخبر الحياة , وأجاد فنون التعبير باطلاعه الواسع , ونظرته الثاقبة حتّى غدا مرآة العلم والمعرفة في عصره .صحيحٌ أنّه وارب في التعبير , وراح يُعلي ويُخفض شأنه في هذا شأن الزمن يبني ويهدم , يكرم ويبخل , حتى لم يسلم من لسانه أحد , فلم يذب في فرقة أو مذهب , ولم يقطع صلته بجهة قطعاً كليّاً , فكان ناقداً في الحياة بكلّ ما للكلمة من

[16]- **الحيوان ج1 /76**

معنى حتّى لم يسلم وجهه من نقده , ولم ينسَ في أواخر أيّامه نقد التناقض في مرضه كما في الأخبار المشهورة , وهو بذلك إنّما كان ينقد الطبيعة التي منحته تلك الخِلقة , والمصير الذي آل إليه , وحتّى الزّمن الذي أمدّه بالعمر الطويل لم يسلم من لسانه , فقد كان عارفاً باستحالة دوام الحال , ويبني على هذا الأساس مواقفه القابلة للتغيير والتبدّل يوماً بعد يوم .نقدَ الأشياء والأفكار والتيّارات والمذاهب والقوميّات والأعراق والديانات والأساطير والشخصيّات بدءاً بنقد العيب في مخرج الحرف وصولاً إلى نقد السلطان , وعلى الرّغم من هذا لم يؤلّف الجاحظ كتاباً واحداً عنوانه نقديّ خالص الدلالة على النقد , لكنّ كلّ مؤلّفاته حتّى الرسائل منها كانت مفعمة بالمعاني والقيم النقديّة بدءاً بالوصف والتحليل والتمثيل مروراً بالمقارنة والمفاضلة وصولاً إلى إعطاء الأحكام التي بثّها واضحة حيناً , ومتأرجحة في أحيانٍ أخرى , وعلى هذا لا يكون للنّقد عنده مباحث مستقلّة , ولا كتب ومؤلّفات إنّما كان نقده في الروح النقديّة التي لا تستسلم لفكرٍ سائد , ورأيٍ غالب , ومقولةٍ مأثورة فحتّى في دراسته "الحيوان" لم يكن يقنع بما يسمع بل حاول التجريب , فإذا تعذّر اكتفى بالأخبار والأسماع , فإذا تعارضت مع العقل المفكّر الرزين نسفها , وجعل أصحابها ما بين الكذب والجهل , وبلغ به الأمر أنّه لم يركن إلى كثيرٍ مما ورد عن أرسطو الذي راق له أن يدعوه "صاحب المنطق" فراح يردّ عليه حيناً و ويناقش بنظرة الشك آراءه حيناً , ويكشف تناقض ما ورد عنه بمبدأ التجريب والمقارنات أحياناً . ونذكر بعضاً من مظاهر الروح النقديّة لديه ربطاً ببعض الحوادث والأحاديث , على أساس تجلّيات النقد العلمي الذي يبحث في القول عن سبب يؤكّده أو ينفيه , معتمداً الثّابت من العلم لدفع الطارئ من الرأي وإن علت قيمة صاحبه , ومن هذا قوله :" وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب الحيوان , أنّه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصي , فنزا على بقرة فأحبلها . ولم يحكِ هذا عن معاينته . والصدور تضيق بالردّ على أصحاب النّظر وتضيق بتصديق هذا الشكل "[17].ثمّ نجد الجاحظ يتابع في غير موضع نقد كلام أرسطو بروحٍ علميّة تنحو منحى التساؤل والاحتكام إلى الواقع والعلم معاً , فيعلّق على وصف أرسطو الفيل بأنّه أجرد "..وهو أجرد الجلد , فلذلك يشتدّ جزعه من البرد , فإن كان أجرد الجلد , فما قولهم في أحاديثهم : طلبوا من الملك الفيل الأبيض والفيل الأبقع , وجاء فلانٌ على الفيل الأسود"[18].وأيّاً يكن الأمر فإننا لا نجد بدّاً من الاعتراف بواقعيّة الجاحظ في ردّه على أرسطو , ونقد آرائه في غير قليل من المواضع كما تقدّم , وأكثر ما تتجلّى موضوعيّة الجاحظ ناقداً إنّما في محاولته التماس العذر لمن أخطأ الرأي والقول , في أنّ ذلك عائدٌ إلى ترجمة فاسدة , أو نحلة هي إلى الكذب والزور أقرب . فها هو ذا يقول :"فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريّين , وأحاديث السمّاكين , وإلى ما في كتاب رجلٍ لعلّه أن لو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة , ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه , ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته "[19].فالجاحظ لم يكن ليحبّ فيعمى عن العيب , ولا ليبغض فيتعامى عن الصواب , ولو كان كذلك لما أخذ عن أحدٍ علماً ولا خبراً , ولما استأنس برأي أحد من الناس مطلقاً , ولو كان كذلك لما انتقد النظّام وهو في مقام أستاذه , وهو محلّ إعجابه وتقديره البالغَين , ثمّ إذا عرفنا ما وصفه به لقلنا : كيف له أن يجعله أستاذه , ويقرّ له بعظيم مكانته في نفسه لولا مقدرة الجاحظ على الإفادة من المفيد دون أن يفقد روحه الناقدة , وشخصيّته المتحرّرة من مفاهيم الأحكام المطلقة , والصفات القطعيّة . " ..وإنّما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنّه , وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله , فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمرَه على الخلاص , ولكنّه كان يظنّ الظنّ ثمّ يقيس عليه , وينسى أنّ بدء أمره كان ظنّاً,

[17]- الحيوان ,ج5 /502-503

[18]-الحيوان ,ج7 /228

[19]- الحيوان ,ج19/6

فإذا أتقن ذلك وأيقن , جزم عليه , وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحّة معناه . ولكنّه كان لا يقول سمعتُ , ولا رأيتُ . وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشكّ السّامع أنّه إنّما حكى ذلك عن سماعٍ قد امتحنه , أو عن معاينةٍ قد بهرته"[20].والغريب في هذا الأمر ظاهر التناقض بين ما وصفه به من ضعف الاستدلال , والتجوّز في القياس والدليل وصولاً إلى مستوى إيهام القارئ بأنّ ما رواه دون تجربة كأنّما هو عن مشاهدة أو امتحان ومعاينة من جهة , ومن جهة إعجابه بعلمه , وإعلاء مكانته في المعتزلة بصورة عامّة .حتّى كأنّ نقد الجاحظ لكبار من تعلّم منهم, وأخذ وروى عنهم , إنّما هو بأسلوبه في التعبير والكتابة أشبه , وإليه أقرب فكأنّه استطراد , لكن في الموقف والرأي , لا في الأسلوب وطريقة عرض المفردات , وربّما لبس الجاحظ هذا الثوب الذي حاكه بنفسه , وعلى مقاسه , حتّى لم يعد يعرف ثوباً ولا لوناً سواه .وفي هذا المنحى من نقده نجده يقيّم أساتذته , ويدرك مجال تميّز كلّ منهم ونقطة ضعفه , وأحسن ما في الأمر أنّ جهده لم يضع , وأنّ قيمته كانت سامية في عين ناقدٍ كابن رشيق ؛ إذ روى جامعاً كلام الجاحظ , وتعليق الصاحب بن عبّاد :"طلبْتُ الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه , فرجعْتُ إلى الأخفش فوجدتُه لا يتقن إلا إعرابه , فعطفتُ على أبي عبيدة , فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلّق بالأيّام والأنساب , فلم أظفر بما أردْتُ إلا عند أدباء الكتّاب , كالحسن بن وهب ومحمّد بن عبد الملك الزيّات ...حتّى قال الصّاحب على أثر هذه الحكاية : فلله أبو عثمان فلقد غاص على سرّ الشعر , واستخرج أرقّ من السّحر "[21].وبهذا يكون الشعر في نظر الجاحظ على صورة هي أقرب إلى أفهامنا في هذا العصر من أنّه كلام تميّز بشرف المعنى , وجودة اللفظ , واستقامة الوزن من غير حشو ولا لغو , ومقامه وسموّه وفق انسجام لفظه ووزنه مع معناه وغايته , وهو تصوير يمكن أن يجمع إلى الصوت اللون والحركة في عمليّة تجسيد وتشخيص تجلو غبار الإهمال , وصدأ الأذهان , لتقترب من نقل جوهر الأشياء , وروح الحكمة بلغة لطيفة , وأصوات حسنة , وقيم موضعها في الذهن والنفس حسن , فهو يعرض رأيه في بيتين من الشعر , وإنّما يقصد نقد أبي عمرو الشيباني في استجادته لهما , فيروي قائلاً: " وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين , ونحن في المسجد يوم الجمعة , أن كلف رجلاً حتّى أحضره دواةً وقرطاساً حتّى كتبهما له . وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً . ولولا أن أدخِل في الحكم بعض الفتك لزعمْتُ أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً ,وهما قوله:

لا تحسبنّ الموتَ موْتَ البِلى فإنّما الموتُ سؤالُ الرّجالْ
كلاهما موتٌ ولكنّ ذا أفظعُ من ذاكَ لذلِّ السؤالْ

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى, والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي , والبدويّ والقرويّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن , وتخيّر اللفظ , وسهولة المخرج , وفي صحّة الطبع وجودة السّبك , فإنّما الشّعر صناعة, وضربٌ من النّسج , وجنسٌ من التّصوير..."[22].وإشكاليّة الجاحظ في النقد تكمن في أنّه لم يسمِّ نفسَه ناقداً , ولم يضع لمؤلّفاته عناوين نقديّة صريحة قطعيّة , لكنّه وفي الوقت ذاته كان ناقداً بحق , منهجه العقل والاحتكام إليه , ثمّ لم يستثنِ أحداً , أو مجالاً , من لمحةٍ نقديّة ربّما بدت لاذعة أكثر مما ينبغي .وربّما جرت العادات والوقائع مجرى التشكيك والاتهام لكلّ من يناقش في أمور الديانات , والأخبار , والأوصاف , والقصص التي ترد فيها , لكن الرويّة وعمل العقل يقضيان أن ننظر في الرأي والقول ثمّ نعمل عليهما لنعرف إن كانا نقداً أم انتقاداً فنفصل القشر عن اللبّ

---

[20]- الحيوان ج229/2-230
[21]- ابن رشيق , العمدة , ج84/2
[22]- الحيوان ,ج3 /131-132

توصّلاً إلى حقيقة الموقف , ونبني عليه رأياً أو موقفاً هو إلى الحقيقة أقرب , وبثوبها أجدر .ومعروف أنّ الجاحظ اتّهم كثيراً في دينه ومواقفه , وبالمقابل معروف أنّه درس علم الطبيعة والحيوان من منطلق الاستدلال بالمخلوق على الخالق, وهذا متوافق مع الديانات السماويّة كلها , لكنّه لم يكن ليرضى كلّ ما دخل أو أُدخِل في هذا الإطار الهائل فراح يُعمل عقله متسائلاً عن جدوى بعض من التفسيرات والقصص والأقوال من دون أن تصل به الجرأة إلى التطاول على نصٍّ قرآنيّ أو حديثٍ نبويّ متفق عليه , فهو يروي بعضاً من قصّة الخلق يوم الطوفان فيقول: "وزعم بعض المفسّرين أنّ السنّور خُلِقَ من عطسة الأسد , وأنّ الخنزير خُلِقَ من سلحة الفيل ؛ لأنّ أصحاب التفسير يزعمون أنّ أهل سفينة نوح لمّا تأذّوا بكثرة الفأر, وشكَوا إلى نوح ذلك , سأل ربّه الفرج , فأمره أن يأمر الأسد فيعطس . فلمّا عطس خرج من منخريه زوج سنانير : ذكر وأنثى . خرج الذكر من المنخر الأيمن , والأنثى من المنخر الأيسر فكفياهم مؤونة الجرذان. ولمّا تأذّوا بريح نجوهما شكوا ذلك إلى نوح , وشكا ذلك إلى ربّه . فأمره أن يأمر الفيل فليسلح , فسلحَ زوج خنازير فكفياهم مؤونة رائحة النّجو . وهذا الحديث نافقٌ عند العوامّ , وعند بعض القصّاص "[23] .وبهذا لا يكون الجاحظ مستسلماً للفكرة إنّما استسلم للفِكر ذاته , وراح يسايره , ويسير معه , ويسيّره ليبلغ به ما يريد , ويكتشف ما ينوي التثبّت منه , والاستدلال به على رأيٍ وحقيقة , وهذا – إن صحّ القول – جوهر العمليّة النقديّة التي لم يتسمَّ الجاحظ بها , ولم ينأَ عنها في كلّ قراءاته ومؤلّفاته بما بثّه فيها من آراء وتقييمات ومفاضلات اعتمدت التشكيك والتجريب والقياس حتّى غدا ناقداً للحياة بما فيها من طباع النّاس , وأذواقهم , وتوجّهاتهم في كلّ من الفكر ,والنقد , والسياسة , والعادات الحياتيّة على السّواء .

الجاحظ والعلم :

لم يفصل الجاحظ – كما كانت طبيعة عصره – بين علمٍ وآخر , أو بين علمٍ وأدبٍ ولغة , فقد كانت الثقافة قائمة على مبدأ الأخذ من كلّ علمٍ بطرف , وربّما كان هذا مألوفاً ومنطقيّاً ومناسباً لتلك المرحلة من حياة الأمّة والحضارة بوجهٍ عام , لكنّه , لم يشأ , ولم يقبل أن يكون كسواه نسخةً من حالةٍ فكريّة ومعرفيّة عامّة سائدة . فإذا كان بعض أساتذته قد اجترحوا في الحياة مساراتٍ تخصصيّة ضيّقة , وإذا كان بعض من العلماء ذوي صفة موسوعيّة تكامليّة إلى حدٍّ ما , فقد ألزم الجاحظ نفسه بالعلم العامّ بدءاً بدراسة الجمادات والحيوانات وصولاً إلى النفس البشريّة , وصفات الأعراق والبيئات , وأثرها في الخَلق والخُلُق , ونعتقد أنّ في هذا سمة علميّة رائدة تمكّن الجاحظ منها , ومكّنته من التميّز , حتّى إنّنا نراه يسير سير العالم الحقّ قياساً بما أتيح له من تجارب ومعاينات وقياس وأخبار وسماع , مع إحكام العقل في كلّ ما كان يجرّب ويسمع وينقل , وكان هذا أعلى ما يمكن للإنسان القيام به في ذلك العصر الذي كثرت فيه الخرافات إلى جانب الحقائق , فتطلّع إلى العلم والتحليل وصولاً إلى فهم الحياة بكليتها , حتّى رأيناه لا يستسلم لفكرةٍ رائجة ما لم يضعها تحت مجهر البصر والبصيرة , أو التجربة والمحاكمة , لدرجة أنّه انتقد أكابر أهل الفكر والمعرفة في قياسهم أحياناً على الظنّ والسماع , دون تثبّت وتجريب ومحاكمة عقليّة صارمة , كما أشرنا في نقده النظّام , وأرسطو , وتفسيرات بعض المفسّرين .ولهذا لا يمكننا وصفه بالعالم دون إشراك باقي صفاته في موقع الصدارة من شخصيّته الفكريّة ؛ فقد نحا منحى العلم بروحٍ نقديّة فلسفيّة , وموادّ أدبيّة , ووفق منهج عقليٍّ واضح , وبأسلوبٍ ساخرٍ متهكّم في كثير من الأحيان , منتقلاً مستطرداً في غير قليل من مواضع دراساته , وفي مؤلّفاته على وجه العموم .ونحن إذا سرنا قُدُماً في قراءة نتاجه باحثين عن شخصيّة العالم فيه وجدنا أنّ نقطة البداية يصعب تحديدها على أساس المجال , أو المادّة العلميّة المدروسة لديه , لكنّها في معظمها تصبّ في مجالات الطبيعة , واللغة , والنفس ,

[23]– الحيوان ,ج5 / 347-348

والمجتمع كما في كلّ من كتبه : الحيوان , والبيان والتبيين ,والبخلاء , وأكثر رسائله .غير أنّه لم يبنِ أيّاً من هذه الكتب مبنىً علميّاً صرفاً , وعلى منهجٍ علميٍّ مجرّد عن ظلال باقي المعارف ومفرداتها ؛ إذ كان نتاجه – كما هو معروف – أقرب إلى الصّفة الشموليّة , وأميل إلى التداخل والخلط والاستطراد في عرض الموادّ المختلفة المتداخلة . لكنّنا وجدناه في كتابه "الحيوان" أقرب إلى علوم الطبيعة ودراسة المخلوقات فيها , فكان كثيراً ما يجرّب ويصف , وينتقد أوصاف الآخرين للمادة , أو الحيوان الذي يصفه بعد معاينة , أو تجربة , أو محاكمةٍ عقليّة , معتمداً الشكّ أساساً في نقد ما يسمعه حتّى يبلغ مرحلة اليقين , أو الدفع , وحتّى التهكّم أحياناً . وهذا واضحٌ في مقدّمة كتابه " الحيوان" إذ يقول : "وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبة الأمم , وتتشابه فيه العرب والعجم , لأنّه وإن كان عربيّاً أعرابيّاً , وإسلاميّاً جماعيّاً فقد أخذ من طُرَفِ الفلسفة , وجمع معرفة السّماع وعلم التّجربة , وأشرك بين علم الكتاب والسنّة , وبين وجدان الحاسّة وإحساس الغريزة "[24].لكنّ التجربة لم تكن لتتسنّى له في كلّ وقت وكلّ مسألة أو مجال , وهذا قائمٌ حتّى في أيّامنا , فكان لا بدّ له من الاستعانة بوسائل أخرى إلى جانب أنّ الإدراك بالحواس يقترب – أحياناً– من الخطأ والانبهار بظاهر الأشياء , وصور علاقاتها الأوليّة , فكان لا بدّ من فيصل هو العقل , فجمع بين السّماع والمعاينة والتجربة , وجعل العقل سيّداً في كلّ ما يقوله , أو يجرّب فيه , أو يسمعه , أو يعاينه . وإن كنّا لم نجد من أهل العلم والدراية من يقلّل من قيمة العقل فإنّ تميّز الجاحظ كامنٌ في إخضاع آثار عمل الحواس للعقل وحده ليدفع الشك بالدليل الذي يقبله العقل, ويحدّد المسافة بين الميل إلى التصديق , والنّزوع إلى الرِّيبة , وحالة اليقين التي تدعمها الملاحظة والتجربة ويقبلها العقل , فلم يكن بهذا بعيداً أو مختلفاً عن أهمّ أسس المنهج العلمي المعاصر .يقول الجاحظ : " ولعمري إنّ العيون لتخطئ , وإنّ الحواسّ لتكذب , وما الحكم القاطع إلا للذهن , وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ؛ إذ كان زماماً على الأعضاء , وعياراً على الحواس "[25] .ويقول في مكانٍ آخر : " فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل , وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس , وحكم باطن للعقول , والعقل هو الحجّة "[26].

وقد جعل الجاحظ من الشك سبيلاً إلى اليقين : " ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر , وكذلك لا يعجبني الإنكار له, ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل , وبعد هذا فاعرف مواضع الشك , وحالاتها الموجبة له ؛ لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ...."[27].وفي الوقت نفسه يقول : " واعلم أنّ من عوّد قلبه التشكّك اعتراه الضّعف "[28]. فهو لا يشك من أجل الشكّ فقط .لقد أجاز الجاحظ استعمال الحواس , ولم يقل إنّها كاذبة إنّما قال : " وإنّ الحواسّ لتكذب" أي يمكن أن تكذب في حالةٍ أو موضع , وهذا مثبتٌ علميّاً , فهي مثلاً لا ترينا دوران الأرض حتّى نعمل أذهاننا فنتبيّن الثّابت من المتحرّك , إنّما ألزمنا بالاحتكام إلى العقل وعمله , فيما تدرك الحواس وفيما لا تدرك , كمظاهر الطبيعة , وعلاقات مكوّناتها , وما أخفت وراءها من أسرار , وإذا كانت الطبيعة بمجملها ظاهراً وباطناً فقد عرف دور كلّ من الحواسّ والعقل فجعل الحواسّ وسيلةً أُولى , ووضع العقل في المقام الأَولى بالتثبّت واليقين وصولاً إلى إمكان اكتشاف جوهر الأشياء , ووضع قوانين لعلاقاتها , وقد لا يكون مقصّراً في عدم وضع القوانين , لأنّه لو فعل لما أبقى لكثيرٍ ممن جاؤوا بعده عملاً يؤدّونه .وإذا كان قد جعل اليقين هدفاً , والشكّ وسيلةً , فقد أوصى بعمل العقل لتعرّف مواضع

---

[24]– الحيوان ج11/1

[25]– رسالة التربيع والتدوير على هامش كتاب الكامل للمبرّد ج1/ 43

[26]– الحيوان ,ج1 /207

[27]– الحيوان ج35/6

[28]– رسائل الجاحظ على هامش كتاب الكامل للمبرّد ج84/2

الشك وموجباته , ومواضع اليقين وموجباته , وانطلاقاً من هذا يكون قد أعطى أساس كلّ منهما من غير أن يحدّد قانوناً لأيٍّ منهما , إنّما استنّ هذا المنهج في الشكّ واليقين , وهذه صورةٌ علميّةٌ بامتياز .وأمّا من يساير , أو يحاول , مجاراة تفكير الجاحظ في أمور الحيوان والطبيعة فإنّه يقف على فنيّة عالية في استعمال الحواسّ منطلقاً , ومادّةً أوليّة لإعمال العقل ؛ بمعنى أنّه يبدأ بالملاحظة لينتقل منها إلى التفكير والتأويل . ومن أهمّ ما يمكن الاستدلال به على المنحى العلمي لديه تنوّع المخلوقات التي لاحظها , ووصف حياتها من أصغرها إلى أكبرها , فهو يصف النّمل في مواضع عدّة من كتابه "الحيوان" ونجده يصل إلى وصف الفيل بأوصافٍ وتحليلاتٍ ومقارناتٍ في غير قليل من مفردات كتابه المذكور , وفي سياق حديثه عن النمل نراه يبحث عن العبرة , واستخلاص الحكمة في الحياة , والدلالة على تناسق خلق الكون , وحكيم صنع الله فيه ."قد علمنا أن ليس عند الذّرّة غَناء الفرس في الحرب , والدّفع عن الحريم . ولكنّا إذا أردنا موضع العجب والتّعجيب , والتنبيه على التدبير, و ذكرنا الخسيس القليل , والسّخيفَ المهين ؛ فأريناكَ ما عنده من الحِسّ اللطيف , والتقدير الغريب ؛ ومن النّظر في العواقب , ومشاكلة الإنسان ومزاحمته . والإنسان هو الذي سُخِّر له هذا الفلك بما يشتمل عليه . وقد علمنا أنّ الذرّة تدخر للشتاء في الصّيف , وتتقدّم في حال المهمة ولا تضيع أوقات إمكان الحزم . ثمّ يبلغ من تفقدها وحسنِ خبرها , والنّظر في عواقب أمرها , أنّها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشّتاء في الصيف , أن تعفن وتسوّس , ويقبلها بطن الأرض ؛ فتخرجها إلى ظهرها ؛ لتيبّسها وتعيد إليها جفوفها , وليضربها النّسيم وينفي عنها اللخَن والفساد .ثمّ ربّما كان – بل يكون أكثر – مكانها نديّاً . وإن خافت أن تنبت نقرت موضع القِطمير من وسط الحبة , وتعلم أنّها من ذلك الموضع تبتدئ وتنبت وتنقلب , فهي تفلق الحبّ كلّه أنصافاً . فأمّا إذا كان الحبّ من حبّ الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب . فهي على هذا الوجه مجاوزةٌ لفطنة جميع الحيوان , حتّى ربّما كانت في ذلك أحزم من كثيرٍ من النّاس . ولها , مع لطافة شخصها وخفّة وزنها , في الشمّ والاسترواح ما ليس لشيء .وربّما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد , فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة , وليس يرى بقربه ذرّة ولا له بالذرّ عهد في ذلك المنزل , فلا يلبث أن تُقبل ذرّة قاصدة على تلك الجرادة , فترومها وتحاول قلبها ونقلها , وسحبها وجرّها , فإذا أعجزتها بعد أن بلغت عذراً , مضت إلى جحرها راجعةً , فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت , وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود , حتّى يتعاونّ عليها , فيحملنها .فأوّل ذلك صدق الشمّ لما لا يشمّه الإنسان الجائع . ثمّ بعد الهمّة , والجراءة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة , وأكثر من مائة مرّة . وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غيرها . وعلى أنّها لا ترضى بأضعاف الأضعاف , إلا بعد انقطاع الأنفاس .فإن قلت : وما علّم الرّجل أنّ التي حاولت نقل الجرادة فعجزت, هي التي أخبرت صويحباتها من الذرّ , وأنّها كانت على مقدّمتهنّ ؟ قلنا : لطول التجربة , ولأنّا لم نرَ ذرّة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها , ثمّ رأيناها راجعة , إلا رأينا معها مثل ذلك , وإن كنّا لا نفصل في العين بينها وبين أخواتها ؛ فإنّه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا . وعلى أنّنا لم نرَ ذرّةً قطّ حملت شيئاً أو مضت إلى جحرها فارغةً , فتلقاها ذرّةٌ, إلا واقفتها ساعة وخبّرتها بشيء . فدلّ ذلك على أنّها في رجوعها عن الجرادة , إنّما كانت لأشباهها كالرّائد لا يكذب أهله"[29] .فصحيحٌ أنّه لم يتمكّن من تجربة مخبريّة يصل بها إلى مكوّنات جسم النملة , وسبب سلوكها العام , وأصل تكوّنها , غير أنّه نجح في التعويض عن هذا كلّه بدقّة الملاحظة والمقارنة , ومعاودة استقراء الظاهرة وهي تحدث من تلقاء نفسها , وربّما فتح باب التجريب أمام كلّ راغبٍ فيه ؛ إذ لا أسهل من محاولة تكرار التجربة , ومعاينة الحوادث وهي تحدث تباعاً مع إمكان التحليل والتعليل في كلّ خطوةٍ منها . وقد يتجلّى المنحى العلمي في هذه التجربة في

[29]– **الحيوان , ج4 /5–8**

افتتاح الكلام فيها بالاستدلال بها على أنّ لكلّ مخلوق , مهما صغُر, دوراً لا يؤديه سواه مهما عظُم , وكأنّه يقول : إنّ هذه الحياة بمجملها صنعٌ محكمٌ , ودليلٌ قاطعٌ , وحجّةٌ دامغة على وحدة القوّة التي أوجدت كلّ شيء وفق خواصّ معيّنة , وارتباط محدّد وفق علائق موضوعيّة بوسطه المحيط العام .فلولا تلك الروح العلميّة والعقليّة المنطقيّة , ولولا ذاك التوثّب في قراءة الأشياء لما خطر له , وهو في تلك الحقبة , أن يستدلّ بالنّملة وخواصّها وسلوكها على أنّ سرّ المخلوق في ذاته , وأنّ ذاته في سلوكه المعبّر عن جوهره ودوره , وصولاً إلى إمكان الاستدلال بكلّ شيء على أشياء أخرى , حتّى يكون كلّ مخلوق جزءاً من محيط دائرة الحياة التي جوهرها حكمة الخلق , ومركزها قوّة الحياة , والسبيل إلى إدراكها حاسّةٌ قويّةٌ , وعقلٌ ريّضٌ , وإرادةٌ واعية .ولمّا كانت الحياة في النشأة والاستمرار قائمة على تطوّر الأصل, وتغيّر الصّورة مع الحفاظ على الجوهر , وأصل المادة فإنّ ضرورات الانسجام مع الحياة قضت بأن يتطوّر كلّ مخلوق بما يمكّنه من البقاء على وجه هذه الحياة القائمة على الأخذ والعطاء , والموت والفناء .لمّا كانت الحياة على هذا النحو وجد الجاحظ أنّ الصّراع من أجل البقاء هو أهمّ عوامل التطوّر في صورة الخلق التي أُوجد عليها المخلوق , وهذا مما أصبح معروفاً في أيّامنا , ولكنّه في عصر الجاحظ يعدّ فتحاً في علم الطبيعة , وقوانين التطوّر فيها . فلننظر في كلامه في فوارق ما بين الغنم والأسود :" وليس شيءٌ من صنف الحيوان أردأ حيلةً عند معاينة العدو من الغنم ؛ لأنّها في الأصل موصولة بكفايات الناس , فأسندت إليهم في كلّ أمرٍ يصيبها , ولولا ذلك لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها . فإذا لم يكن لها سلاحٌ ولا حيلة , ولم تكن ممن يستطيع الانسياب إلى جحرة أو صدع صخرة , أو في ذروة جبل , كانت مثل الدجاجة , فإنّ أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رفّ . وربّما كانت في الأرض , فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك .وربّما كان عند الجنس من الآلات ضروب, كنحو زبرة الأسد ولبدته , فإنّه حمول للسّلاح إلا في مراق بطنه فإنّه من هناك ضعيفٌ جدّاً ,وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالأرض . وله الحبس باليد , وله الطّعن بالمخلب , حتّى ربّما حبس العَير بيمينه وطعن بمخلب يساره لبّته وقد ألقاه على مؤخّره , فيتلقّى دمه شاحياً فاه وكأنّه ينصبّ من فوّارة , حتّى إذا شربه واستفرغه صار إلى شقّ بطنه .وله العضّ بأنيابٍ صلابٍ حداد , وفكّ شديد , ومنخر واسع . وله مع البرثن والشكّ بأظفاره دقّ الأعناق , وحطم الأصلاب . وله أنّه أسرع حضراً من كلّ شيء أعملَ الحُضْرَ في الهرب منه . وله من الصّبر على الجوع ومن قلّة الحاجة إلى الماء ما ليس مع غيره , وربّما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يومٍ وليلة . ولو لم يكن له سلاحٌ إلا زئيره , وتوقّد عينيه , وما في صدور النّاس له , لكفاه .وربّما كان كالبعير الذي يعلم أنّ سلاحَه في نابَيه وفي كِرْكِرَته .والإنسان يستعمل في القتال كفّيه في ضروبٍ, ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمَه ورأسَه وصدرَه , كلّ ذلك له سلاحٌ ويعلم مكانه , يستوي في ذلك العاقل والمجنون, كما يستويان في الهداية في الطّعام والشّراب إلى الفم ...."[30]. أليس واضحاً ما وصف به كلاً من الغنم والأسد بما لكلٍّ من وسائل دفاع فطريّة تنسجم مع طبيعة جسمه , ونقاط القوّة والضّعف فيه ؟ ثمّ ألم يربط بين حياة الغنم في كنف البشر , وانعدام أسلحتها الذاتيّة , وبين كثرة أسلحة الأسد بطبيعة حياته واضطراره إلى الافتراس حتّى لما هو أضخم منه , ويكاد يكون أقوى بدناً لولا التفاوت في السلاح كالجمل ؟وفي إثبات الفطرة في استعمال الوسائل والأسلحة الذاتيّة نجده يساوي العاقل بالمجنون في استعمال الكفّين والمرفقين والرجلين في القتال , كما هما في الهداية في الطّعام والشراب إلى الفم , وكأنّه يقول إنّ الطبيعة قائمة على نظام محكم الخلق , دقيق النسبة في القوّة والضّعف , وقلّة الجنس وكثرته . ويشير إلى إمكان تطوير وسائل الدفاع الذاتيّة بإشارة إلى تغيّر الحال , وتغيير الهيئة انسجاماً مع الحال والحياة المتغيّرة , فكأنّها من جديد مقولة (لكلّ مقامٍ مقال) تلك التي تتبدّل في النفس , والانفعال , ونبرة الصوت

[30]- **الحيوان ,ج6 /377-379**

, وسرعة الحركة في لحظة , غير أنّها في صورة الخلق , ومقوّمات البنية قد تحتاج حقبةً من الزمن غير محدّدة ولا معروفة على وجه اليقين حتّى في يومنا هذا . وقد نميل إلى وصف الجاحظ بالعالم الملاحظ والمجرّب إذا نحن سرْنا في مؤلّفاته باحثين عن هذه الصّورة وتجلّياتها , وما نتج منها في كلّ من أبواب الطبيعة , والنفس البشريّة , وأخلاق الناس وطبائعهم , غير أنّه لا يحسن بنا الانسياق في هذا كلّه حتّى ننسى أو نتناسى الجوانب الأخرى في نتاجه المعرفي . لكنّ قوّة الطّموح , والرغبة في اليقين تدفعان إلى استقراء معالم هذا الجانب العلمي الثرّ لدى الجاحظ كما في حديثه حول أثر البيئة بمكوّناتها وعلائقها في النّفس البشريّة وطبائعها وصفاتها العامّة , وإذا كانت بعض آرائه , والأخبار التي أوردها , قد تدخل في باب المقارنات أكثر مما تدخل في باب العلم الموضوعي , أو التجريبي والوصفي , فإنّها لا تعدم الدلالة على المنحى العلمي في التفكير والوصف والمقارنة , فقد استدلّ على أثر البيئة في طباع النّاس وأخلاقهم بكثيرٍ من الأخبار والروايات , ومن ذلك ما جاء في كتاب البخلاء :"قال ثمامة ت 213هـ : لم أرَ الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط , يأخذ الحبّة بمنقاره ثمّ يلفظها قدّام الدجاجة , إلا ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ , قال : فعلمت أنّ بخلهم شيءٌ في طبع البلاد , وفي جواهر الماء , فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم .فحدّثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشيد , فقال : كنتُ عند شيخ من أهل مرو , وصبيٌّ له صغير يلعب بين يديه , فقلتُ له , إمّا عابثاً وإمّا ممتحناً , أطعمني من خبزكم , قال : لا تريده , هو مرّ , فقلتُ : فاسقني من مائكم , قال لا تريده , هو مالح . قلتُ : هات من كذا وكذا , قال : لا تريده , هو كذا وكذا . إلى أن عددْتُ أصنافاً كثيرة , كلّ ذلك يمنعنيه ويبغّضه إليّ . فضحك أبوه , وقال : ما ذنبنا ؟ هذا مَن علّمه ما تسمع ؟ يعني أنّ البخل طبعٌ فيهم وفي أعراقهم وطينتهم "[31] .فإذا لم يصحّ الخبر حول ديكة مرو فربّما صحّ الخبر حول بخل أهلها , ولو فسد الخبران لبقي فيهما منطق القياس والربط والاستدلال على أثر البيئة في صفات أحيائها عامّةً , ولو صحّ الخبران لجسّدا حقيقةً وظاهرةً قاطعة قائمة , فلم تنقص عن مستوى العلم إلا في مستوى التجربة و القانون الطبيعي .وإذا كان العلم بكلّيته معرفةً وصفيّة تجريبيّة , تقوم على الملاحظة والتحليل والتعليل , وصولاً إلى اكتشاف علل الأشياء, توصّلاً إلى وضع القانون الطبيعي لها , فإنّ الجاحظ قد أدّى كثيراً من هذه المعطيات العلميّة , وربط ما سمعه عمّن كان قبله بما سمعه أو لاحظه في عصره , وما جرّبه بيده , وكثيراً ما نجح في إعمال عقله تشكيكاً واستدلالاً , ونفياً وإثباتاً , إلحاحاً منه على هذه الحالة المعرفيّة , وإيماناً بقيمة العلم , وضرورته , وصحّة الاحتكام إلى العقل فيه , فكانت وسائل العلم عنده كل ما هو متاح , وكان العلم مرادف العقل من وجهة نظره , ولا نجد في علوم عصرنا ما هو مختلف عن نظرته في العلم كبير اختلاف , إنّما هي طبيعة مبدأ التطوّر في صور الحياة , وقيمها , ومبادئها , وعلومها . ولمّا كان لكلّ زمان أهله , فقد كان الجاحظ واحداً من أبرز رجالات عصره حتّى استطاع أن يمثّله فيعدّ علماً عليه .

الجاحظ والفلسفة :

تعدّدت الآراء , وتباينت مواقف الدارسين حول فلسفة الجاحظ ما بين نفيٍ وإثبات ؛ فمنهم من رآه بعيداً عن الفلسفة بعداً كليّاً ، ومنهم من رآه فيلسوفاً . ونحن نظنّ أنّ الفلسفة ، بصفتها علماً جامعاً أكبر ، من التخصّص , وأبعد عن الإحاطة , وقد نجح الجاحظ إلى حدٍّ غير قليل في الاطلاع على فلسفة اليونان – ودلائل هذا كثيرةٌ في كتبه عموماً – لكنه لم يُسلم قيادَ عقلِه المنفتح لكلّ آراء كبار الفلسفة , بل كان محلّلاً وناقداً في مواضع عدّة .والفلسفة بصفتها أقساماً تتوزّع وتتماهى مع مقوّمات الوجود ماديّاً ومعنويّاً فهي علم العلوم , وبيت الحِكَم , وصائنةُ الحُكْم , وكيف يكون بعيداً عنها رجلٌ كالجاحظ , وهو الذي شقّ طريقه في التأليف في عصر المأمون الذي دعّم حكمه بجمع الفلسفة إلى

[31]– **البخلاء ,ص : 40**

الدِّين , لأوّل مرّة في تاريخ الإسلام ؛ فالجاحظ وإن لم يُسمّ فيلسوفاً فقد آمن بالعقل دليلاً , وسبيلاً إلى الإيمان , وقيّماً عليه , وكثيرةٌ هي الدراسات التي أهملت الجانب الفلسفي عنده واهتمّت بالجانب الأدبي, فقد جاء في دائرة المعارف الإسلاميّة :" إنّ الجاحظ كان أوّلاً وقبل كلّ شيء من الأدباء , وإنّ تواليفه , حتّى ما كان منها خاصّاً بالكلام , هي أدنى إلى الأدب منها إلى العلم "[32] .وإذا أدركنا طبيعة علاقته بمن حوله , وطبيعة أولئك من الأصدقاء, أو الأعداء, وقفنا على جانب من تلك الصورة المتداخلة المعالم"وكان لا بدّ من أن يحتدم الصراع بينه وبين خصومه الذين ضاقوا بأدبه ونزعاته ...في فترة كانت الزندقة خلالها قد انتشرت على نطاق واسع , فاعتبروا آراءه الحرّة هرطقة , ودعوته إلى معالجة الشؤون التي تمسّ العقيدة كفراً وزندقة , وما كان الجاحظ من الزنادقة بل كان حر الفكر , يبسط آراءه بتفكير منطلق , وروحٍ سمحة , تستهدف سلطان العقل للوصول إلى لبّ النصوص التي تفسّر جوهر الدين "[33], ونتساءل : ألا يمكن لظلال الأدب أن تتداخل مع العلم ؟ إنّ ما ألّفه الجاحظ في علم الكلام دليلٌ على خوضه وخبرته في اللغة والنّفس معاً , وما اللغة إلا حاملة الفكر , وما النّفس إلا بيت المشاعر التي توافق الفكر في غير قليل . وأمّا قوّة ملاحظة الجاحظ , وفطنته , وسداد ملاحظاته فهي من دعائم الفكر الإنساني برمّته سواءٌ سمّيناه فلسفةً أم أيّ اسمٍ آخر , وكذلك فإنّ حصر مؤلّفاته في كتب الأدبيّات , أي كتب التهذيب وأدب التسلية والعلوم,يؤدي إلى نقض عُرى التواصل , والتشابك بين الفلسفة وكلّ ما تقدّم .وإذا كان الأمر كما ورد في دائرة المعارف الإسلاميّة فأين تقع الفلسفة؟ وما الأمور التي تعنى بها ؟ وما عمادها ؟ وهل هي علمٌ دراسيٌّ ذو قواعد وصيغ وأساليب أم هي أوسع بكثير وهي تشمل الطبيعيّات والإلهيّات التي اشتغل فيهما الجاحظ كثيراً , منطلقاً من مبدأ إسلامي يقوم على دلالة المخلوق على الخالق .ولربّما لم يكن في نيّة كثير من أهل العلم أن يفيد المسلم من مبادئ الفلسفة حتّى يتحجّر على دينه الذي حضّه على العلم , والإفادة من معطياته المتوالدة , فيكون باسم الدِّين يبتعد عن جوهره المعرفيّ المتّخذ من إعمال العقل أساس الحياة والعلم والإيمان معاً . فالجاحظ وإن لم يكن فيلسوفاً كأعلام الفلسفة وأقطابها المؤسّسين من أهل اليونان , فقد وجدناه يجمع بين ضروب الأدب واللغة والكلام والتأليف على نحوٍ فريدٍ طريفٍ لم يوافق مبادئ كثير من أهل العلم والنقّاد , فكان هذا حافزاً لنا كي نحاول , والمحاولة بحدّ ذاتها وسيلة دالّة على الغاية , مهما كان شأنها .فعندما لا نذهب إلى وصفه بالفيلسوف فهذا على أساس أنّه لم ينسّق أفكاره بصورة دقيقة ومنهجٍ محكم, كما هم أقطاب الفلسفة من القدماء , ولم يكوّن مذهباً فلسفيّاً خاصّاً به , أو لم يضع في الفلسفة نظريّاتٍ واضحة محدّدة . وإذا حاولنا دراسة مؤلّفاته , وتحليل مواقفه ومنهجه سعياً وراء العلوم التي خاض فيها , والسبيل الذي نظمها عليه , وجدناه لم يترك شيئاً ممّا تناولته الفلسفة دون أن ينطلق منه في الإدراك والتحليل والبناء , أو يقدّم فيه رأياً يُبنى عليه , أو يُشار إليه .

ولمّا وجدنا أرسطو قد قسّم الفلسفة إلى قسمين : الفلسفة الأولى أو الإلهيّات , والفلسفة الثانية أو الطبيعيّات , وجب علينا التساؤل عن جدوى إبعاد الجاحظ عن الفلسفة انطلاقاً ممّا تناوله , وجرّب فيه , أو قاس عليه , وانطلق منه؛ فقد عالج موضوعاتٍ غيبيّة , وطبيعيّة متعدّدة " تكلّم عن الله , خالق الكون ومنظّمه من حيث وجوده وصفاته وإدراكه وعلاقته بالإنسان , كما تحدّث عن بعث الرّسل ودورهم في إرشاد البشر ودلائل صدقهم , واهتمّ بالطبيعة فدرس ما فيها من كائنات مختلفة من جماد وحيوان وإنسان , فوجد فيها طبائع تسيّرها ينبغي الاعتماد عليها لفهمها , كما وجد

---

[32]– ينظر , دائرة المعارف الإسلاميّة, الترجمة العربيّة , مج6 , ص : 236– 238 , نذكر بعضاً من الدراسات التي تتفق مع هذا الرأي : " الجاحظ " لـ: خليل مردم بك , " أدب الجاحظ " لـ : حسن السندوبي , " الجاحظ معلّم العقل والأدب " لـ : شفيق جبري ," الجاحظ, حياته وآثاره " لـ : طه الحاجري , " الجاحظ والحاضرة الإسلاميّة " لـ : وديعة طه النجم , " الجاحظ في حياته وأدبه وفكره " لـ : جميل جبر .....

[33]– ينظر : الكيالي , سامي , النفس الإنسانية في الأدب " الجاحظ" , ص: 21

فيها من دقّة الصّنعة ما يدلّ على حكمة الله ووجوده . وبذلك يكون قد ربط ربطاً محكماً بين قسمي الفلسفة المذكورين . وهو ينطلق غالباً في أبحاثه من العينيّات لينفذ إلى الذهنيّات "[34] .وبمسايرة عقليّة الجاحظ , وأسلوبه في التأليف نجده في كثير من مفردات مؤلّفاته باحثاً عن الحقيقة في كلّ شيء , وكلّ أمرٍ بدءاً بأصغر المخلوقات , مروراً بالناس والظواهر الطبيعيّة , وصولاً إلى البحث في الإلهيّات, ومذاهب النّاس كلّهم في العبادة , ومنطلقاتها , وكيفيّاتها , وتجلّياتها . فهو وإن لم يضع كتاباً واحداً , أو مبحثاً واحداً تحت عنوانٍ أو مسمّىً فلسفيٍّ واضح مباشر, فإنّه حمل روح الفلسفة في كثيرٍ من آرائه ومؤلّفاته , فإذا كان قد بدأ التأليف – صراحةً – بكتاب "الإمامة " وهو ما هو عليه من قولٍ وحججٍ ومفاضلة , فإنّه يتطرّق إلى الدّين من وجهةٍ عقليّةٍ محكمة . وهل إعمال العقل في الدين والمذاهب بعيد عن جوهر الفلسفة أم هو منها ؟ , ثمّ إذا درس في " الحيوان" المخلوقات أكثرها – بما استطاع – من تجريبٍ ومقارنة وتهيئة للظرف, والحالة الخاصّة التي يكون عليها المخلوق في وضعيّةٍ معيّنة , حتّى يتفحّص أثر الحالة من خوفٍ أو دفاع أو جوع ...في هذا الكائن أو ذاك , فهذا كلّه إن لم يكن من صفات العالم ولا الفيلسوف فما عساه أن يكون ؟ أوليست الفلسفة الطبيعيّة هي العلم بالطبيعة على أساس عمل الذّهن , واستعمال الحواس توصّلاً إلى المعرفة العامّة وبلوغ اليقين ؟ ومن هنا تتجلّى صورة الجاحظ في إطار من المنحى الفلسفيّ في فهم الطبيعة , والوسط المحيط , وعلائق مكوّناتها بعضها ببعض , وهو في كلّ ما بحث فيه , أو عرض آراء العلماء والفلاسفة في إطاره , نجده يعتمد العقل والجدل والمقارنة مبدءاً عامّاً ينتهجه , ويسير عليه , حتّى كأنّ الغاية عنده هي الإنسان بدلالته على ذاته بوصفه خلاصة هذا الوجود الطبيعي والغيبيّ , المادّي والمعنويّ , الحسّي والمعرفيّ في آنٍ معاً ؛ إذ وجدناه يتناول شبه الإنسان بالمخلوقات الأخرى , واختلافه عنها , كما يتناول أثر البيئة وتغيّراتها في سلوكه وصفاته , ثمّ وجدناه داعيةً إلى العقل بصفته عنوان تميّز الإنسان عن باقي المخلوقات , وأساس التفاضل بين البشر , وهو به أقرب إلى الشبه بالعقل المطلق , والذي لا يبلغه إنسان بلوغاً تامّاً ولا يفتقده إنسان افتقاداً كليّاً .فإذا كان بعضٌ من معاصريه قد أخذوا عليه منحاه العقلي في الدّين فقد ظلموه , وإذا أغفلنا منه هذا المنحى فقد خسرناه , والحال الوسط خيرٌ وأسلم . فنحن لا نقول : قد أبدع الجاحظ في كلّ ما بحث فيه , أو جاء في مؤلّفاته من آراء تحمل صبغةً فلسفيّة , لكنّنا لا ننفي قيمة تناوله لها , وخوضه غمارها ملتزماً العقل دليلاً , والحواسّ وسيلةً لينفذ من العينيّات إلى الذهنيّات .فالجاحظ دائماً هاجسه الأوّل الإنسان , يستحضره دائماً , ويحفّز نفسَه , ويشحذ همَّته المعرفيّة . ولنلحظ أسلوبه في التساؤل عن معرفة حقيقة الإنسان , وطريقته في الاستهلال بسؤالِ مخاطَبٍ مازال معمّماً حتّى يشملنا في وقتنا هذا :"أوَما علمتَ أنّ الإنسان الذي خُلِقت السموات والأرض وما بينهما من أجله كما قال عزّ وجلّ : " سَخَّرَ لَكُمْ ما في السّمَواتِ وما في الأرضِ جَميعاً مِنْهُ " إنّما سمّوه العالم الصّغير سليل العالم الكبير , لما وجدوا فيه من جمعِ أشكال ما في العالم الكبير , ووجدنا له الحواسّ الخمس , ووجدوا فيه المحسوسات الخمس , ووجدوه يأكل اللحم والحبّ , ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسّبع, ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد , وغدر الذئب , وروغان الثّعلب .....وسمّوه العالم الصّغير لأنّهم وجدوه يصوّر كلّ شيء بيده , ويحكي كلّ صوت بفمه . وقالوا : ولأنّ أعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر والنّجوم السّبعة , وفيه الصّفراء وهي من نتاج النّار , وفيه السّوداء وهي من نتاج الأرض , وفيه الدّم وهو من نتاج الهواء , وفيه البلغم وهو من نتاج الماء . وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة ...."[35].ولربّما جرت العادة مجرى الإعجاب , ووصلت إلى حدّ الانبهار بالظاهرة المدروسة , أو المؤلّف الذي يدور البحث في فلكه المعرفيّ , وأفنية مؤلّفاته فينساقَ

[34]– ينظر : بو ملحم ,علي, المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ, ص : 7

[35]– ينظر : الحيوان ج1 , ص:212 –214

الباحث معه حتّى يراه الأوحد , أو الأوّل , في مضمار هذا المجال أو ذاك , غير أنّنا لا نريد أن يبلغ بنا الأمر حدّاً نتعامى معه عن حقيقة الاكتساب والمبدأ التواصلي في الفكر الإنساني , وصيغة الاقتباس والإضافة والعقل الذي هو ديدن أهل الفكر والمعرفة .فنحن إذا تروّينا في كلامه عن الإنسان , وسبب تسميته العالم الصّغير سليل العالم الكبير على حدٍّ سواء وجدناه مطلعاً على مواطن الفكر الفلسفي , ومصطلحاته اليونانيّة , ثمّ لم يكتفِ بهذا الاطّلاع والفهم إنّما جهد كي يشرحه ويعلّله فيفهمه الآخر الذي هو الإنسان بغضّ النّظر عن جنسه ومذهبه في التفكير أو الدِّين , أو موضعه من العصر والزمان . وبهذا كان تلميذاً نجيباً استطاع أن يفهم ويعلّل , ويربط العلم بالعلم , والسبب بالنتيجة , فيشرح الفكرة , ويوصل المعنى , ولهذا أمكن وصفه :"بمعلّم العقل أوّلاً والأدب ثانياً"[36].ولمّا صحّ هذا الوصف فهل من مجالٍ لنفي صفة العلم والفلسفة عنه؟ وهو الذي جال بفكره فيما لم يتسنَّ إلا لقلّة من أهل الفكر والقلم . نقول هذا ولا نرى فيه مبالغة منطلقين من غير قليل من الإشراق الفكريّ الوفير في نتاج الجاحظ الذي لم يترك نبذةً من نبذ المعرفة الإنسانيّة المتمحورة حول النّفس البشريّة خلْقاً وخُلُقاً دون أن يتناولها نقلاً لما ورد فيها , وقياساً لها وعليها بمنطق العقل المستنير , والروح العلميّة المتأنية , ثمّ تحليلاً وتعليلاً لها توصّلاً إلى المستوى المعرفيّ الذي يتجلّى في صورة التأليف , وقد أشار إلى أهميّة مستوى القارئ في مستوى عمليّة التلقي , وأصرّ على تحفيزه وترغيبه وتنبيهه إلى طبيعة المضامين وقيمتها , ومخاطر الانجراف مع ظاهر الأمور فيها . وظلّ هكذا يشدّ قارئه , ويرتقي به إلى الحدّ الذي لم يعد فيه مجالٌ للفصل ما بين كلٍّ من شخصيّته ومؤلّفاته , وطبيعة مضامينها , وأسلوبه فيها , ومستويات القرّاء والمتلقّين الذين ليسوا فئةً واحدةً , ولا أبناء طبقة معيّنة , ولا أبناء عصرٍ واحد ؛ إذ ليس لمن لا يرى الاستمرار والمستقبل غاية جوهريّة أن ينتج ما أنتج الجاحظ .فنحن إذا تروّينا فيما صدّر به كتابه "البخلاء" وجدناه على كثير من العمق في فهم النفس البشريّة , وخلقِها وخُلُقها , وآثار عوامل الاحتكاك والتداخل بين الأقوام والأمم , فكأنّه قد أعدّ بنفسه ويده وعقله وأسلوبه مختبراً علميّاً يتناول فيه حياة الناس , وصفاتهم , وأخلاقهم لكن بأسلوبٍ أدبيٍّ طريفٍ مطرفٍ منتصراً لخلقٍ على خلق , ومعلياً بذلك أهل الأوّل على أصحاب الثّاني , فلنلحظ بعين الاهتمام قوله : "..فإنّ للجدّ كدّاً يمنع من معاودته , ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته , وذكرت ملح الحرامي , واحتجاج الكندي , ورسالة سهل بن هارون , وكلام ابن غزوان , وخطبة الحارثي , وكلّ ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم , ولمَ سمّوا البخل إصلاحاً والشحّ اقتصاداً , ولمَ حاموا عن المنع ونسبوه إلى الحزم , ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع , ولم جعلوا الجود سرفاً والأثرة جهلاً , ولم زهدوا في الحمد وقلّ احتفالهم بالذم ... ولم حكموا بالقوّة لمن لا يميل إلى ثناء ولا ينحرف عن هجاء , ولم احتجّوا لظلف العيش على لينه ولمرّه على حلوه , ولم تتابعوا في البخل , ...ولم رغبوا في الكسب مع زهدهم في الإنفاق , ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى , ولم يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى ...ولم احتجوا – مع شدّة عقولهم – لما أجمعت الأمّة على تقبيحه ,...ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيّن حجّة طريفة , أو تعرّف حيلة لطيفة , أو استفادة نادرة عجيبة , وأنت في ضحكٍ منه إذا شئت , وفي لهوٍ إذا مللتَ الجد , ...وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها , إمّا بالخوف منهم , وإمّا بالإكرام لهم "[37].وإذا كنّا نقول: إنّ الجاحظ لم يتبع منهجاً , أو قلنا إنّ استطراده في عموم مؤلّفاته نتيجة فوضى في التأليف , وعرض الموادّ المعرفيّة , فما قولنا في هذا التوصيف الذي صدّر به كتابه البخلاء ؟ أوليس هذا الوصف جامعاً مانعاً ؟ إنّه عصارة الكتاب , والخطّ البياني الذي سلكه فيه . ولا نقول هذا انتصاراً لمنهج الجاحظ في التأليف, خلافاً لما وصفناه به سابقاً, إنّما نراه أقرب إلى العلم بطبائع النّفس

---

[36]– ينظر : ابن خلكان, وفيات الأعيان , 389/1 , وهذه العبارة أطلقها ابن العميد

[37]– ينظر:البخلاء , تحقيق طه الحاجري ص:1–8

البشريّة , وسمات سلوكاتها , وتعليلها , والمقارنة فيما بينها , وكأنّه يطرح في أوصاف البخلاء إشكاليّة الكسب والإنفاق , ومجالات كلٍّ منهما , وأسبابه , والغايات المرجوّة منه . منطلقاً بهذا كلّه من مبدأ إسلاميّ يشير إلى الخوف من زوال الغنى , وإلى رجاء دوامه , ويلمّح إلى عوامل كلّ من الزّوال والدّوام , ووجدناه كما في الكتاب عموماً يطرح المظاهر الخارجيّة للبخلاء , ويقرنها بسلوكاتهم , وسماتهم النفسيّة , ومنطلقاتهم الفكريّة , وهو بهذا يستدلّ بالصّورة على الفعل ليكوّن بهما صورة لعقليّة البخلاء فينفذ بهذا كلّه من العينيّات إلى الذهنيّات , ومن المرئيّ إلى اللامرئيّ , ومن وقائع الحسّ إلى خبرة الفهم , وهذا من أهمّ مبادئ الفلسفة وأسسها , وقد أجرى موادّ الكتاب , وأخبار البخلاء عموماً مجرى صور الأفعال الإنسانيّة سلباً وإيجاباً , وعرض للمقارنة فيما بينها ؛ فكأنّه أعاد طرح مشكلة الأخلاق بوصفها سمات السلوك الإنساني , ولكنّه ترك للقارئ متعة الاطلاع , وفائدة الاختيار. وإذا لم يكن هذا من عمل الفلاسفة فما عساه أن يكون ؟

خاتمة :

وإذا كنّا نتعب في قراءة كتب الجاحظ, لما فيها من غنى وتنوّع وتداخل , وخلط ما بين الجدّ والهزل , وكلّ ذلك وفق أسلوب قائم على الاستطراد لأغراضٍ عدّة جرى ذكرها , فإنّ هذا كلّه لا يقلّل من أهميّتها بل يرفعها ويعليها لأنّها – وإن لم تكن أوائل المؤلّفات – فهي مقياسٌ ومنطلقٌ للتأليف , وذات منهج ظلّ قائماً زمناً غير قليل , فمن هذه الزاوية يمكن وصفها , والمقصود وصف صاحبها, بالعمق والتعمّق , والعلوّ والاستعلاء, حتّى أشكلت على كثيرٍ من معاصريه وناقديه ودارسيه, حتّى من المعاصرين , وليس هذا بغريب ولا مستبعد الحدوث في التعامل مع نتاج الهامات الفكريّة في كلّ زمانٍ , وفي كلّ أمّةٍ . فكم من علماء قضوا بتهمةٍ مخالفةٍ لمنطقٍ سائد في أيّامهم , ثمّ جرى الاحتفاء بنظريّاتهم, والسير على أساسها , لثبوت صحّتها , لكن بعد أن أودى تقصير تفكير أبناء العصر عن إدراك فحواها وقيمتها . ولعلّ الجاحظ كان مدركاً بعضاً , أو كثيراً , من خيوط هذه الظاهرة , أو الحالة المتخلّقة في أحوال التفكير , وطاقات الفهم , وإمكانيّات التلقّي في عصره , فلم ينطوِ على ذاته يمتاح منها الهموم , ويغوص فيها إلى ما وراء الواقع, ولم يُقبل على الدنيا والمجتمع بأسلوب المصفّق لكلّ ظاهرةٍ طارئة , وكذلك لم يقنع بالقليل من العلم , والضئيل من المؤلّفات , بل على النّقيض من هذا كلّه وجدناه متوثّب الهمّة في التفكير , وتأويل الأمور , وظواهر الأشياء وصفاً وتعليلاً وتحليلاً , شأنه شأن العالم الواصف المجرّب هذا كما في مجالات الطبيعة واللغة والأصوات والبيان , وبصورةٍ خاصّة في " الحيوان, والبيان والتبيين ", كما تجلّت لديه صورة الأديب المهتمّ بالكلام والأخبار والفنون في مؤلّفاته أكثرها , ثمّ لم تخلُ أيٌّ من كتبه ورسائله من لمحات وإطلالات فلسفيّة واضحة الدلالة على دقّة التفكير , وإنفاذ العقل , وإعلاء شأنه على كلّ ما عداه وهذا في "الحيوان , والبيان والتبيين , والبخلاء " بصورةٍ أوضح .لكنّه ومع هذا كلّه , بل ربّما ولهذا كلّه , لم يرتدِ زيّ أيّ من العالم أو الأديب أو اللغوي أو الفيلسوف دون سواه , بل لوّن ووارب فيما بين أبواب المعرفة , ومجالات الفكر والتأليف المعروفة في عصره والعصور السابقة له , حتّى استطاع أن يكون ظاهرةً فكريّةً بامتياز , تجلّت وجلت صورة عصره , ومثّلته خير تمثيل ؛ إذ لم يترك شيئاً أو زاوية من شيءٍ أو أمرٍ سواءٌ في وسطه المحيط , أو علم النّفس , وعلوم الدين , واتجاهات أهل الفِرق والمِلل من غير أن يصفه , ويعلّل له , ويقيّمه , ويفاضل فيما بين ذلك كلّه بمنهج العالم في الوصف والتعليل والاحتجاج , وبمذهب الاعتزال في إعمال العقل , وعلى أسلوب الأدباء في الصّوغ والتأليف , وعلى نهج اللغويّين في الرّواية والأخبار . لكنّه زاد عن أكثرهم أنّه اطلع على كثير , واصطفى كثيراً , وأدلى بدلوه في كثير فألّف ما فاق حجمه وعدده المألوف لدى سواه .وإذا كنّا نطلب التخصّص لنرتقي بالعلم والمعرفة , أو لنرتاح من

وطأة تداخل أبواب المعرفة , وضروبها , وتجلياتها فإنّ هذا شأننا نحن في عصرنا هذا , وليس من الحكمة أن نستعيد الماضي لنجريه مجرى الحاضر , ولا أدلّ على هذا من أنّنا , وبأقصى السّرعة , نذكر الجاحظ فنذكر الاستطراد وأشهر مؤلّفاته وأضخمها , ثمّ إذا توخّينا الدقّة في فهم عُرى هذا الأسلوب ومدلولاته وأسبابه ونتائجه وقفنا على ظاهرة أسلوبيّة تحتاج دراستها وقتاً وجهداً غير قليلين , ثمّ إذا سرنا معه في مؤلّفاته عموماً احتجنا إلى مؤسّسات دراسيّة فكريّة لنتمثّل كلّ ما فيها من الأفكار والمعاني والأساليب والأسباب والغايات , وحدود ما بين المادّة العلميّة , وطرائق الصّوغ , والعوامل والوسائل الكامنة وراء تجلّيها على هذه الصّورة , والهيئات الغنيّة والمتداخلة فيما بينها , معتمدين أسلوب الجاحظ الذي يصحّ القول فيه : إنّه الجاحظ نفسه .

المصادر والمراجع :

- ابن خلدون , المقدمة , دار إحياء التراث العربي , بيروت , ط4 ,من غير تاريخ.
- ابن خلكان,وفيات الأعيان, تحقيق : إحسان عباس , بيروت , دار صادر ,1978
- ابن رشيق , العمدة في صناعة الشعر ونقده , ط1 :1907
- بلا, شارل, الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء,ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني , دار الفكر ط1 :1985
- بو ملحم , علي , المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ , دار الطليعة للطباعة والنشر, بيروت , ط1 :1980.
- الجاحظ , أبو عثمان :

البخلاء , تحقيق : طه الحاجري , القاهرة , دار المعارف : 1963.

البيان والتبيين , تحقيق : عبد السلام هارون , مكتبة الخانجي بالقاهرة ,رقم الإيداع 2003/2400

الحيوان,تحقيق:عبد السّلام هارون ,تقديم : أحمد فؤاد باشا , وعبد الحكيم راضي , مكتبة الاسرة : 2004
- جبر , جميل ,الجاحظ في حياته وأدبه وفكره , بيروت : 1959
- جبري , شفيق ,الجاحظ معلّم العقل والأدب ,دار البشائر ,ط2: 2001
- الحاجري, طه,الجاحظ , حياته وآثاره , القاهرة : 1962
- خليل , حلمي ,دراسات في اللسانيّات التطبيقيّة ,
- دائرة المعارف الإسلامية , إعداد وتحرير مجموعة من الباحثين ,دار الشعب , القاهرة,ط2 , بدون تاريخ.
- السندوبي , حسن,أدب الجاحظ, القاهرة , 1931
- ضيف , شوقي , الفن ومذاهبه في النثر العربي , القاهرة : 1960 .
- عبد اللطيف , محمود , التراث العربي الإسلامي في مجال الفكر التربوي ج1, الفكر التربوي عند الجاحظ , وزارة الثقافة , إحياء التراث العربي , سورية , دمشق : 2005 .
- الكيالي, سامي, النفس الإنسانية في الأدب " الجاحظ",سلسلة اقرأ ,رقم :226,دار المعارف بمصر:1961
- المبرّد, أبو العبّاس, الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف , تحقيق الدكتور زكي مبارك , ط1 : 1936, مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .
- مردم بك , خليل ,الجاحظ,دمشق : 1930